حواريات الكوفة قراءة في مرجعيات الجواهري
الجواهري والمتنبي مثالا

المدرس الدكتور
محمد طالب الاسدي
جامعة البصرة / كلية الآداب

حواريات الكوفة قراءة في مرجعيات الجواهري الجواهري والمتنبي مثالا

المدرس الدكتور

محمد طالب الاسدي

جامعة البصرة / كلية الآداب

الملخص

اعتمد الجواهري في تحقيق خصوصيته الإبداعية منهجية الاستقصاء والتمحيص وإعادة الإنتاج ، و لا نعني بهذه المنهجية تلك الملامح العابرة من هذه الظاهرة التي نعثر عليها في النص الأدبي ، وإنما نشير إلى سمة لها من الوفرة والرسوخ لدى الجواهري ما يمكن معه أن نعدها إحدى الخصائص الأسلوبية لنصه المتموقع على مفترق الطريق بين الخليلية القديمة والخليلية الجديدة ، فقد جعل الجواهري من نصه ملتقى نصوص الشعر العربي متباينة العصور ، وبين هذه الروافد يطالعنا المتنبي بوصفه إحدى أكثر المرجعيات المهيمنة الكامنة في نص الجواهري .

اعتمدنا في مقاربة النص من هذا المنطلق التحليلي إحدى تطبيقات المقترب النصي ممثلة بفكرة " الحوارية " بتعبير باختين ، أو " الحس التأريخي " بتعبير إليوت ، أو " التداخل النصي / التناص بتعبير كرستيفا ، وهو ما يمكن أن ندعوه أيضا بـ " مرجعيات النص " (1) .وقد اخترنا للدراسة " حواريات الكوفة " عنواناً رئيساً لا من منطلق جغرافي وإنما من منطلق الاستحقاق الابداعي لهذه المدينة العريقة التي قدمت للتأريخ الإسلامي و للدرس اللغوي والنص الشعري العربي الشئ الكثير ، حرصا على عقد الوشائج بين ماضي أدبنا المشرق وحاضره ، وحفاوةً موضوعية من الباحث بتجربتين كوفيتين مهمتين كان لهما وما يزال الأثر الكبير في كتابة النص الشعري وتلقيه النقدي على حد سواء ، فتجربة الجواهري تستحضر المتنبي بقوة .

تمهيد :

يُحسَبُ للجواهري أنه تمكن من خلق حضور ملتزم بالشكل الموروث للنص في أتون انبثاقة حركة الشعر الجديد ، ليشكل مسارا موازياً في أتون حمى التجريب التجديدي العربي ، مسار لم يكن ليشكل حضوره الملحوظ لولا امتلاكه قدرا من مقومات البقاء ، فقد نسفت موجة الحداثة الكثير من أهرامات الرمل التي لم تقو على إقناع المتلقي بجدواها ، فعلى الرغم من أن الكثيرين استمروا في كتابة القصيدة العربية على وفق منظور الالتزام ، فإن الجواهري وحده ـ وقلة من الآخرين ـ مثَّلَ بجدارة الصوت الخليلي الأعلى والأكثر دويا وصخبا وتأثيرا في القطاع (الخليلي) من المتلقين ، فقد امتلك زمام النص ، بمثل ما امتلك رصيدا هائلا من المعرفة المبنية على القراءات

المتعمقة الموسعة والتأمل النافذ في مواطن التأثير الإبداعي في المقروء ، وهو ما تجلى قسط منه في مختاراته من ديوان الشعر العربي التي تشير إلى طرف من أسرار الكتابة لديه ممثلا بثقافة شعرية ذات طابع موسوعي ، شكلت مع قابلياته الذهنية واستعداده الفطري الذي أشار إليه مؤرخوه (2) مشغلاً شعريا عني بإعادة إنتاج التراث ، وعلى وجه التحديد تلك المواطن الأكثر حراكا في مجمل ذلك التراث ، وقد وفق من خلال ذلك إلى أن يعيد للقصيدة العربية الموروثة رونقها البنائي والأسلوبي والجمالي الذي اتسمت به في نتاجات أكابر الشعراء العرب في عصور الشعر الذهبية ، فبعد أن كاد التلقي العربي يفقد الأمل في قدرة الشكل الخليلي على تخليق خطاب يتناسب وهمومه وقضاياه الحياتية والمعرفية المعاصرة ، نتيجة ما سبق عصر الجواهري من انحدار أدبي وتقهقر لبنية النص ودلالته لم تنج منه سوى مشاغل شعرية محدودة في أصقاع الوطن العربي ، غير أنها على الرغم من قيمتها التأريخية لم تبلغ بالنص الموروث ما بلغه الجواهري من استقرار بنائي ، ووعي لغوي ، وانزياح بالموضوع والدلالة في حدود مرحلته وموقعه التاريخي في المسار الخليلي للكتابة الشعرية . إن مرجعية المتنبي للجواهري قد تجلت في مستويين :

أولاً ـ مستوى الرؤيا :

ثمة فرق على مستوى الدلالة بين كل من (الرؤية) و (الرؤيا) ، فالملفوظ الأول يقترن بالبعد المادي للوقائع والأشياء ، بوصفه فاعلية إدراكية تشتغل في الظواهر والأحياز الحسية وتعتمد المنطق العقلي المجرد ، وهي بذلك تختلف عن المحمول الدلالي للملفوظ الثاني (الرؤيا) ، المستعارة من عوالم المنامات ، وهي لا تتحقق إلا في حالة انفصال عن عالم المحسوسات ، وتتفاوت بتفاوت الرائين ، وتكشف عن علاقات بين أشياء قد تبدو للعقل متناقضة لا يربط فيما بينها أي شكل من أشكال التقارب ، كما تتجاوز الرؤيا الزمان والمكان ، إذ تتجلى للرائي أشياء الغيب خارج التسلسل الزماني وخارج المكان المحدود (3) .

في الرؤيا الشعرية يتم اجتلاب محيط الذات إلى منطقة دلالية تنشط فيها اشتغالات مزدوجة يتعاضد فيها كل من العقل والعاطفة والمتخيل الفردي والجمعي ، ويجري اختراق البعد المادي للواقعة التي يتم اخضاعها إلى فاعلية الرؤيا بتمريرها عبر قنوات تلك المنطقة الدلالية مزدوجة الاشتغال لإعادة إنتاج الوقائع ، توصلاً إلى إحداث تغيير في بنية المكان الموضوعي ، والعدول عن المنطق الزماني والمكاني باختراقهما إلى المنطق الذاتي وتجليات الوقائع والظواهر .

على الأديب أن يمتلك رؤيا للعالم ، رؤيا تكون قادرة على مخاطبة الجماعة بقدر ما هي مطبوعة بالطابع الذاتي والخصوصية النفسية والأسلوبية للمنتج ، أي أن الرؤيا تتخطى العالم الموضوعي ولكنها لا تغيبه ، إنها تمكن الرائي من الاستشراف ، وتهب الذات مركزية كونية ، لا بالمنحى النرسيسي الخالص ، وإنما بما يكفي منه لجعل الذات تتمحور حول الوجود ، ولجعل الوجود يتمحور حول الذات ، في تكاملية البحث

والتطلع إلى ماوراء الوقائع والأزمنة والأمكنة ، مقاربة للجوهر الخبئ في مكنونها ، مقاربة تضع الأدب باستمرار على مشارف السؤال الفلسفي .

والسؤالان الجوهريان هنا هما : أ / هل امتلك الجواهري رؤياه الخاصة للشعر ؟ ، ب / ما هو موقع المتنبي من تلك الرؤيا ؟

إجابة على التساؤل الأول ، نزعم أنه فعل ذلك ، وتمثلت تلك الرؤيا بالانتماء إلى ديوان الشعر العربي وسيرورته التأريخية ، وإعادة قراءته لإنتاج نصه الفارق ، الذي يستحضر الماضي الشعري للغة العربية في اللحظة ذاتها التي يحاول في فضائها تحقيق ذاته الإبداعية الخاصة ، فقد حاول الجواهري على مدى أكثر من نصف قرن من الزمان أن يعصرن القصيدة القديمة التي أخذت تأكل نفسها بعد أبي تمام والمتنبي والمعري تحديداً ، فتخفف بمقدار غير يسير من هيمنة مقولات النظم والعقود الفريدة ، وارتياد وصلات الفصاحة والبلاغة ، لقد علم أن الشعرية العربية القديمة قد استهلكت نفسها ، وأنها بدأت تخلي الميدان لتحول محتم يكتسح بنية النص الشعري ، فلم يتخلف بنصه تماماً عن لحظة الرؤيا ، ولم يحرم نظرته التراثية للشعر من مقدار ما من التجديد ، وهو أمر أخذ يبدو أكثر وضوحا كلما نأى به العمر عن البدايات إلى أواسطه المسكونة بالاغتراب والاحتكاك بالثقافات العربية وغير العربية، وخلال ذلك كله ، تجدد في القطاع الخليلي من المتلقين الثقة والأمل بقدرة سفينة الخليل على اجتياز العاصفة ، عبر استحالتها جزءاً من أجزاء تلك العاصفة نفسها ، واكتسابها منها مقوماتها الجديدة ، على نحو يمكن معه القول بأن نص الجواهري هو بمثابة متحفٍ تراثي عرضت فيه خلاصات التجريب الشعري القديم و مورست في واجهاته تمرينات مجتهدة لمعتقدات وعبارات ذلك التجريب ، لقد تخطى بأنموذجه الخليلي للكتابة شعراء القرن التاسع عشر ، وشعراء أبولو والرابطة القلمية ومواطنَيه الرصافي والزهاوي ، ومجتمعات الكلاسيكية الجديدة كافة ، فلم تقدم القصيدة ـ في الحدود الأبستمولوجية للكلاسيكية في عهده ـ خيراً مما فعل ، ممثلا بذلك الحلقة المفقودة بين الخليلية القديمة والخليلية الجديدة ، التي ماتزال تحاول بمشقة بالغة غير مفضِيَةٍ غالباً أن توجد لها موطئَ قدم يضاهي رسوخ وتنوع كائنات الشعر غير الخليلية .

يمكن القول أننا فيما لو افترضنا جدلاً أن تلك السفينة بقيت هي الوسيلة الوحيدة للرحلة إلى جزائر الشعر المجهولة ، فإنه نهض إلى حد ما بالمهمة التي نهض بها أبو تمام في زمنه حين صنع الحلقة الواصلة بين زمنين شعريين هما ما قبل أي تمام وما بعده ، كما نهض بالمهمة التي نهض بها المتنبي بعد أبي تمام ، وهذا ما فعله المعري بعدهما ، حين أدرك أن المسار الجمالي للشعرية العربية قد بلغ قمة عطائه على يد حكيمي تلك الشعرية ، فتوصل بحدسه الإبداعي إلى أن يشتغل على الجانب الفكري من النص الذي لم يبلغ من الإشباع الإبداعي والتخليق الكتابي ما بلغه الجانب الجمالي لديهما ، فكان أن أسس لالتحاق النص العربي بالجمالية الفلسفية ، التي وجدت أكفاءها من بعده لدى محيي الدين بن العربي والحلاج والنفري (4) .

على هذا النحو وحده يمكن فهم موقع النص الجواهري في تأريخ الشعرية العربية المعاصر ـ في الجانب الأكثر أهمية من منجزه ـ ممثلاً بالتوطئة للخليلية الجديدة

، ومحاولة تبيان قدرة الشكل القديم على استيعاب شئ من المفهومات والبنى المعرفية الجديدة للشعر ، فالجواهري يمثل للخليلية الجديدة ما يمثله السياب لشعر التفعيلة تاريخيا (5) وهو مثال ناجح لما دعاه إيليوت بـ " الحس التأريخي " وهو لديه ((أمر لا يمكن أن يورّث ، فإن رغبت فيه ، فعليك أن تبلغه بجهد عظيم)) (6) ، وهو ما يبقي الموتى من أسلاف الشاعر أحياءً ، فهو بذلك ((يتضمن إدراكا ليس لمضي الماضي فحسب ، بل لحضوره كذلك)) (7) ، مصداقا لقوله عن قصائده :

فـإن لا تبـذ المفلقين فإنهـا يقصر عنهـا شاعرٌ غير مفلقِ
سهرت لها الليلَ التمام أجيدها أغوص على غر المعاني فأنتقي (8)

إن الرؤيا الشعرية عند الجواهري تقوم على تقديم ما يمكن وصفه بالخُلاصات الجمالية ، عبر البحث في أرشيف النص الشعري العربي عن خير ما قدمه الشعر العربي في البناء والدلالة والإيقاع خلال رحلته الطويلة ، والناظر في رحلة النص الشعري العربي منذ الجاهلية حتى يومنا الحاضر يجدها رحلة قراءة فردية لمنتج جمعي مقترنة بإعادة إنتاج ، فلكل شاعر مرجعياته ، يعقد معها حواريات النص ، وهو عبر ذلك يقدم للمتلقي تصوره الذاتي لماهية النص ، وفهمه لطبيعته ووظيفته واختياره من احتمالياته الجمالية وتجلياته البنائية والأسلوبية والدلالية .

غير أن هذه الآلية الراسخة في عملية الكتابة منذ أقدم العصور لا تسير على الوتيرة ذاتها لدى مختلف الشعراء ، فهي سلاح ذو حدين ، يلقي بأغلب مقتنيه إلى التهلكة ، حين يضعهم في منطقة " الظل " ونعني بها تلك المساحة التي يحجبها نفوذ التجربة المقروءة في الذاكرة الجمعية ، فهي مساحة إبداعية تعد من ممتلكات المنتجين المدموغة بالطابع الشخصي ، فلكل مبدع مجاله الحيوي في هذا الحيز الافتراضي من آفاق التلقي ، ومحاولة سلبه هذا المجال الحيوي المذكور أو جزءا منه تعد عملا غير مفضٍ ، يندرج بقوة ضمن مفهوم الاستنساخ ، وحين نصل إلى هذه المنزلة من منزلات الكتابة ، نكون قد التحقنا بمفهوم الاجترار والمكابدة / الاستهلاك ، وهنا ينمحي المنتج ويحتجب تحت وطأة الظل النافذ الذي يلقيه حضور التجربة المنسوخة على المستنسخ ، فهذه المنطقة الافتراضية (منطقة الظل) هي مجمع القراءات ومبتداها الناهض أو منتهاها المحتوم ، فمن بين تضاريسها تنطلق التجاريب الانتاجية كافة ، وبين هذه التضاريس نشهد نشوء مناطق الظل الجديدة ، و تلاشي أخر .

قدم الجواهري نصا يستمد عرامته وجبروته الإبداعي في أوانه لغة وأخيلة وأسلوبا من روافد الشعر العربي أجمع ابتداءً بالشعر الجاهلي ، مرورا بنتاجات ديوان الشعر العربي كافة على اختلاف عصورها ، وصولاً إلى من عاصره من الشعراء ، غير أن مزية أخرى أكسبت نصه سمته العراقية تمثلت في إفادته من نتاجات شعراء القرون المتأخرة في مدرسة العراق الشعرية (القرن التاسع عشر خاصة) ، وفي طليعتهم شعراء مدرسة الكوفة / الامتداد ، ممثلة برواد حلقات الدرس المعرفي في النجف الأشرف من الأدباء ، ومن قطنها وانتسب إليها من شعراء الحلة وبغداد وغيرها من حواضر العراق والعالم الإسلامي فغدوا جزءً من نسيجها الثقافي والاجتماعي ،

عبر أسماء شكلت علامات ثقافية نيرة تمثلت النص الموروث بإجادة وتصرف ووعي قل نظيره في تلك العهود التي فقد فيها الشعر هويته المعرفية وتأثيره الجمالي على امتداد جغرافيا اللغة العربية ، ولكن قسطاً من رونقه وتأثيره في التلقي عاد إليه على يد شعراء يمكن أن نعدهم مبدعين ومتفوقين حين نراعي مقاييس عصرهم ، ونقارن بين شعرهم وأرشيف الشعر العربي في عهودهم ، مثل محمد سعيد الحبوبي ، ورضا الهندي ، وحيدر الحلي ، وجعفر الحلي ، وكاظم الأزري ، وصالح الكواز ، والأعسم وغيرهم ، وقد تجاورت وامتزجت تجاربهم حليين وبغداديين أو سوى ذلك في ظلال مدرسة النجف الشعرية ، التي وفرت للشعر العراقي في القرون المتأخرة مشغلا ثقافيا جرى فيه تلقي النص نقدياً في فضاء معرفي تتحايث فيه اللغة والأدب وغيرها مع الاشتغال العقلي والنقلي المحوري للمكان ، ولا غرابة في الأمر ، فقد كان حيدر بن سليمان الحلي شيخ الأدب العراقي في عهده، إلى جوار صديقه الحبوبي ، وكان لهذين العلمين مكانتهما الكبيرة في نفس الجواهري ، لما مثلاه له في يفاعته من مثال أدبي يحتذى ، ولما لهما من صلة اجتماعية وثقى بأسرة الشاعر ، وقد ذكرهما في مفاصل سيرته الذاتية المثبتة في مقدمة ديوانه (9) وقد مدح الحلي والد الجواهري بقصيدة مطلعها :

فاق الشيوخ يافعا وسادها ندبٌ ثنت له العلا وِسادَها (10)

ويحدثنا الجواهري عن حادثة زيارة الحبوبي لأبيه في دارهم ، وإيقاعه آنية الشاي هيبة منه وإجلالاً له (11) ، ويقول د. محمد حسين الأعرجي خدن الجواهري عن الحبوبي ((وكان الجواهري من المعجبين به ، وظلَّ معجباً به طوال حياته))(12)، وينتصر للحبوبي بمقالة طويلة حين يذم صديقُه أحمدُ حامد الصراف طرفا من معجمه اللفظي في الخمريات والغزل ، ويقدم الجواهريَّ عليه ، ومما قاله الجواهري في ذلك ((أخالفك وأحيد عنك في عدك الحبوبي في زمرة الشعراء الذين لم يعرفوا إلا ذاك النمط من الشعر ، ولا أحيلك على أكثر من مراجعة وصفيات السيد الخمرية والروحية حتى تدرك أن له فضل النبوغ في ظهوره لأول مرة وعلى حين غرة بمظهر الشاعر المتجدد الثائر من بين طبقته في ذلك الفن)) (13) ، ويقول ((ولماذا تقول أن ليس في شعر الحبوبي ما يسمى شعرا ؟ ، أنا أعيذك من كلمة مثل هذه ، فماذا تريد بالشعر ، أوليس هذا من الشعر المملوء شعوراً وإحساساً ؟))(14).

لقد كان الجواهري قادرا على تمييز الغث من السمين في الشعر ، وانتخاب مختاراته بثقة في النفس لا باتباع اتجاه مهما بلغ من الرواج ، لا يماري في ذلك ولا يداهن ، ولا يُبالي أكان من ينتصر له شاعرا أنصفه الناس أم غمط حقه في ذلك ، وحديثه السابق عن الحبوبي في زمن كان فيه سوق الشعر مزدحما بأسماء نحو الرصافي والزهاوي وحافظ وشوقي ينم عن ذلك ويدل عليه .

إن لطرف من نتاج مدرسة الكوفة ـ الامتداد فضيلة لا تنكر في عهده ، نظراً لحسن تمثله مايحاكيه من العلامات النصية الفارقة ممثلة بنصوص لها حضورها الذهني في الذاكرة الجمعية ، أو محاولة الإضافة والتنويع في الأسلوب والتركيب والاختيار

الإيقاعي بطريقة الإفادة من المجمل لا من علامة نصية فارقة بعينها ، كما هو بين في طرف من نتاجات من ذكرناهم ، وهذا كله إنما كان نتيجة حتمية للحراك الثقافي والنشاط المعرفي المزدهر في مدينتي النجف والحلة ، فقد تموقع الدرس المعرفي في مركز هذه المؤسسة العلمية التي تمتد في عمق التأريخ الإسلامي ، وحول هذا المركز تحلَّقت متجهات معرفية أخر من العلوم القلية والنقلية ، وكانت اللغة وما ينتمي إلى فضائها موضع اهتمام كبير من لدن جمهور أولئك المشايخ والطلاب ، اهتمام أوجد للأدب والشعر مناخاً حضاريا وبيئة صحية افتقر إليها قروناً ، وهو أمر يمكن تبينه بيسر بتصفح كبريات تواليف تلك الفترة في العقيدة والفلسفة الإسلامية والأدب ، إذ نلحظ حرصاً جلياً على رقي العبارة ، وسلامتها البنائية واللغوية ، بما ينم عن ولع بالأدب ، وسعة مطَّلَع على التراث ، وهو أمر لم يقتصر على شريحة الشعراء والأدباء وحدهم ، بل هو جليٌ أيضا لدى الكثير من شيوخ العلم ، وكبار الفقهاء ، فالكثيرون منهم قد جمعوا بين الدرس العقائدي وكتابة الشعر ، فكانوا علماء شعراء، منهم على سبيل المثال : السيدان جعفر وحسين ابنا السيد مهدي القزويني ، ومنهم من بلغ مرتبة الاجتهاد مثل السيد محمد سعيد الحبوبي والشيخ محمد حسن كبه والشيخ محمد حسن صاحب جواهر الكلام (جد الشاعر محمد مهدي الجواهري) ، والشيخ مهدي بن الشيخ علي كاشف الغطاء ، وغيرهم ، مما يدل على مكانة الأدب الرفيعة في تلك المؤسسة العلمية العريقة وتكامله مع خطابها العلمي ، وقد كان ظهور شاعر مثل محمد مهدي الجواهري نتيجة حتمية لذلك المخاض الأدبي والعلمي الطويل الذي تجاور فيه الشعر والدرس المعرفي ، وكان فيه الشعر فاكهة المجالس العلمية ، وموضع اهتمام جمهور المثقفين في النجف الأشرف بوصفها منارة الثقافة العراقية وسفينة نجاتها خلال القرون المظلمة التي تخبطت خلالها الثقافة العربية طويلاً ، وفسد الذوق الأدبي وانهارت بنية اللغة ، وخبت جذوة الإبداع الشعري .

غير أننا لا نجد بين كل هذه الأسماء الكبيرة شاعرا نجفيا جعل من شعره قراءة لمجمل ديوان الشعر العربي خلا الجواهري ، فقد اختص كل شاعر بمجموعة أو اتجاه بعينه من ديوان الشعر العربي ، أما الجواهري فقد انشغل بالجميع ، القدماء من جاهليين وإسلاميين وعباسيين ، مروراً بشعراء القرون المتأخرة ، وصولاً إلى من عاصرهم ، فمساحة حواريات النص تغطي تلك السيرورة بكفاءة منقطعة النظير ، فنجد تداخلا مع نص جاهلي بجوار تداخل آخر مع نص عباسي ، وتداخلاً مع نص من القرون المتأخرة بجوار تداخل مع نص إسلامي ، وهكذا تجاور في حواريات الجواهري شعراء من عصور أدبية مختلفة مثل النابغة والمهلهل والفرزدق والحطيئة والكميت وأبو نؤاس وصفي الدين الحلي والصنوبري والأرجاني والرصافي وشوقي وحافظ في نص واحد بانسجام وتآلف يتم خلاله إعادة إنتاج النصوص المقروءة عبر حواريات النص ، وقد مثلت هذه النزعة الحوارية الجانب التطبيقي من الرؤيا الشعرية عند الجواهري ، وهو جانب مهد له في يفاعته بديوانه الأول (حلبة الأدب)، الذي بارى فيه غرر القصائد العربية القديمة ، وتمثل الجانب النظري منها بمختاراته الضخمة من الشعر العربي التي جمعها في كتاب وسمه بـ (الجمهرة) .

أما ما يتعلق بالتساؤل (ب) ، فإن موقع المتنبي في رؤيا الجواهري موقع متصدر ومحوري ، عبر حواريات نصين يتلاقى فيهما قديم مدرسة الكوفة الشعرية ممثلاً بالمتنبي صوتها الأعلى في القدماء من طرف ، وبالجواهري بوصفه امتداداً طبيعيا لتلك المدرسة وصوتها الشعري الأعلى في العصر الحديث ، وفاتحة ما ندعوه بالخليلية الجديدة ، وما يدعى أحياناً بقصيدة الشعر ، في منظور يلهث لإقامة معادلة اصطلاحية مفتعلة مع قصيدة النثر بوصفها ملفوظا اصطلاحيا ضبابيا لم تتضح ملامحه ولم تستقر دلالته فيما قدمه التجريب العربي في صدده ، ولنا فيها رأي ومقترح نقدي لم ننشره بعد ، ونصانيات مخطوطة .

يرشدنا الجواهري نفسه إلى الموقع الرؤيوي المحوري للمتنبي عنده ، في شعره وفي مقالاته ، ففي قصيدته التي ألقيت في مهرجان الذكرى الألفية للمتنبي في دمشق 1953 ، ووسمه فيها بـ (الشاعر الجبار) وهو عنوانها ، أعرب عن دواعي إجلاله وإعظامه للمتنبي ، وفي مقدمتها ثوريته العاصفة وتمرده وعمقه ، وقد دعاه بجملة من الصفات الدالة والمفصحة عن منزلته لديه نحو (الألمعي ، العبقري ، الكوكب الجديد ، المارد العظيم ، النبي ، خصم الملوك ، وغير ذلك)، ومما جاء فيها :

وُلِدَ الألمعيُّ فالنـجمُ واجِـمْ ... باهتٌ من سطوعِ هذا المزاحِـمْ
أترى عالـم السموات ينحـ ... ـط جلالاً عن واطِئات العوالم
قـال نجـمٌ لآخـرٍ ليـــت أني ... لثرى الـكوفة المعطر لاثـــــمْ
ولبيـتٍ أنـاره عـبقـــــريٌّ ... لم يُنَـوَّرْ بمثله الأفـقُ خـــــادمْ
كيفما شـاء فليكن إن فكـراً ... عبقـرياً على المجـرة حائـــــمْ
أيها المــارد العظيم تقبَّـــلْ ... ضرماً تستشيط منه الضرائـــمْ
وسلامٌ عليك يـوم تُنـــاوي ... لـؤمَ أطماعهم ويوم تُهـاجِـمْ
إنما يَبـعث النبي إلى العـــا ... لم بيتٌ مهفهـف النور قاتـــمْ
إيه خصم الملوك حتى يقيموا ... لك أُمثـولةَ النظيرِ المزاحِـمْ (15)

وفي مقالته الأدبية التي قدم بها كتابه (الجمهرة) ، يقف وقفة مطولة مع كتابي د. طه حسين (الأدب الجاهلي) و (مع المتنبي) يرد فيها ما جاء فيهما بأسلوب جدلي ، يحتكم إلى الاستبصار العقلي ، والمعيار المنطقي ، كما في اعتراضه على أخذ المؤلف بالمعيار العرقي في المفاضلة بين شعرائنا القدماء ، وانتقاصه من دعاهم الجواهري بالشعراء الأعلام الستة ، مشيرا إلى رأي الدكتور بأنه لا ينبغي أن يُعتَدَّ بالطائيين [وعنى بهما أبا تمام والبحتري] ولا بالسيد الحِميَري ، فهم ـ بحسب تعبير ذلك المؤلف ـ كأبي نؤاس وابن الرومي والمتنبي لم يكونوا من العرب في شئ ، وإنما قالوا الشعر عن تعلم وصناعة في غير لغتهم الطبيعية ـ بحسب تعبيره ـ لأنها أصبحت في زعمه لغة الأدب بحكم الدين والسياسة، وحجته في الدعوة إلى ترك الاعتداد بهؤلاء الستة هي أن الشعر في العصر العباسي أصبح شائعا بين العرب والموالي أنفسهم ، فلا ينبغي الاعتداد بهؤلاء (16) ، ومما قاله الجواهري في ذلك أيضاً ((بيد أن الدكتور طه ، سرعان ما يتحامل بكل قسوة وظلم وتحيز على كل شيوخ العلم والأدب والرواية

والحديث والشعر ـ والشعر بخاصة ـ من ذوي أصل غير عربي ، ممن ساهموا مساهمة عظمى في خدمة الحضارة الإسلامية .. وهو حين يتحدث عن الموالي من هؤلاء الشيوخ فإنما يتحدث بلغة الجاهلية نفسها ، بل إنني لا أظلم الجاهلية بذلك فلم يكن العربي الجاهلي يتحدث عمن استرقَّه بمثل هذا الحقد ولا بمثل هذه الغطرسة .. ناهيك عن نفي العروبة عن أعاظم الشعراء العرب)) (17) ، ويشعر القارئ أن استرسال الجواهري في رد مزاعم المؤلف إنما هو توطئة للدفاع عن المتنبي ـ شاعره الأثير ـ وإن انتصر خلال حجاجه النقدي لمن دعاهم الشعراء الستة الأعلام ، غير أن ذلك المؤلف قد استجاش في انتقاصه من المتنبي ـ بخاصة ـ بين كل هؤلاء الأعلام وتراً حساساً في ذات الجواهري المجلة للمتنبي يقينا لاسبيل إلى المغالطة والمراوغة فيه ، وهو ما يظهر بنحو بين في قوله ((فهل استطعت أن أقرب إليك الدكتور طه في كتابه الأدب الجاهلي وعجائبه ؟ ، وأفظع ما في هذا القول الفظيع أن المتنبي العظيم ـ عنوان التاريخ العربي ومجده الشامخ ـ لم يصبح أعجميا فحسب ، بل ومضرب المثل في ذلك (كالمتنبي) على حد تعبيره !! ، أي على قاعدة أن المشبه به أقوى من كل المشبهين !!)) (18) .

إن عبارة الجواهري ((المتنبي العظيم عنوان التاريخ العربي ومجده الشامخ)) تدلنا بنحو بين على موقع المتنبي في رؤيا الجواهري الشعرية ، موقع دعاه إلى الانتقال من كتاب (الأدب الجاهلي) إلى كتاب المؤلف الآخر (مع المتنبي) الذي تؤكد عبارات الجواهري المحتدمة غضبا في الرد على مضمونه الذي يراه معاديا للمتنبي عداء ليس من العلم والموضوعية في شئ أن المتنبي لم يكن محض شاعر من بين من حاورهم الجواهري من الشعراء ، وفيهم من يصفهم بالأعلام كما مر ، بل كان يحتل لديه مرتبة عليا لاتدانى ، فقد رأى فيه نسيج وحده في مجمل الشعر العربي و خلاصة وعي الشعر التي بلغت بجماليات الفن الشعري القديم تخوم الكمال ، فكأن الجواهري في العبارات المحتدمة الآتية يدافع عن معتقده ويقينه ونفسه ، وليس عن شاعر بين المئين من الشعراء : ((أما المتنبي فللدكتور طه حسين معه ـ وحده دون غيره ـ ثارات جاهلية لا تُنسى ، ولم يتشف منها بكتابه الأدب الجاهلي حتى أضاف إليها كتابه المتنبي .. ولم يشفع عنده للمتنبي أنه الثائر العربي الأصيل على كل ما في أمته من عيوب ومن جيوب ..))(19) .تحيلنا عبارات الجواهري السابقة على جانب آخر من جوانب موقع المتنبي في رؤياه الشعرية ـ سوى التكامل الفني والجمالي ـ ممثلاً بحفاوته بالتمرد الذي يرتكز إليه منجز المتنبي ، التمرد على بنية النص الموروثة ومسكوكات القول الجاهزة (وهو أمر قاده إلى المغايرة في اللغة الشعرية والأسلوب والدلالات) ، مصحوبا ومتوازيا مع التمرد الفكري (وهو أمر قاده إلى القطيعة مع الأنساق المهيمنة وموجهات الحياة في عصره والاصطدام بالواقع والخروج عليه) وهما ملمحان رئيسان من ملامح سيرته ومنجزه وقعا موقعا حسنا من نفس الجواهري الثائرة الملأى بالتمرد والجياشة بالمطامح الجسام ، وهي نزعة جعلت منه شاعرا ملتزما ، صب جام غضبه على الطغاة والاستعباد ، وانتصر للمستضعفين من خصوم الحرية والكرامة الإنسانية ، وهي نزعة " متنبئية " بينة وجدت لها مستقرا في مواطنه

المعاصر لتطل بأسلوبية جواهرية قديمة جديدة في آن معاً في قصائد دوت في الآفاق مثل " تنويمة الجياع " و " دم الشهيد " و " أخي جعفر"، و" آمنت بالحسين " ، و" الثورة العراقية " و" الوحدة العربية الممزقة " ، و " أم عوف"، و " ابن الثمانين " وغيرها من غرره التي رددتها الجموع طويلاً ، وقد عبر الجواهري عن إجلاله وحبه لنزعة التمرد هذه في قصيدته (أيها المتمردون) المهداة ـ بتعبيره ـ " إلى أرواح الشعراء المتمردين ، ومنها قوله :

أساتذتي أهل الشعور الذين هم ... مناري في تدريبتي وعمادي
لئن جئت عن أزمانكم متأخراً ... فإني قريبٌ منكمُ بفؤادي
وعندي منكم كل يومٍ مجالسٌ ... ترف بها أرواحكم ونوادي (20)

ثانياً ـ المستوى النصي :

غير أن موقع المتنبي في رؤيا الجواهري الشعرية لم يقف عند حدود دينامية النص أو ماوراء الخطاب ـ مما اجتهدنا في استنطاقه فيما تقدم ، بل كان له تمظهره النصي / بصماته اللغوية والدلالية التي يمكن اجتلاؤها بالحفر في فضاء العبارة الشعرية عند الجواهري ، وفيما يأتي سنعرض لبعض تلك الحواريات الممتدة والمتسمة بالوفرة لديه ، وسنقسمها إلى فئتين هما : الحواريات الكابية ، والحواريات المنتجة :

أ ـ الحواريات الكابية :

وقد بدا الجواهري فيها تابعا لما يحاوره من نصوص المتنبي ، يكاد أن يعيدها كما هي ، أو يجنح إلى الشرح والتفسير لما يحاوره ، وأكثر أمثلة هذه الفئة تنتمي إلى بواكيره الشعرية ، ومنها ما يأتي :

الجواهري :

ومن أخلفتـه في المعالي قضيةٌ ... تكفَّلَ في إنتاجها الصارمُ العضْبُ (21)

المتنبي :

من اقتضى بسوى الهندي حاجتهُ ... أجاب كلَّ سؤالٍ عن هلٍ بلَمِ (22)

بدا الجواهري في هذه الحوارية قاصراً عن اللحاق بما يحاوره ، فاقتضاء الحاجات بلسان (السيف) دعوة تنسجم تماماً مع عصر المتنبي ولا تنسجم مع عصر الجواهري ، عصر الطائرة والدبابة والمدفع والبندقية ، كما أن نص المتنبي أكثر إدهاشاً للمتلقي من نص الجواهري لأنه أودع بنية الشد والتفجير الممثلة بجملة الشرط وجوابها فائدة معرفية هي أدعى إلى تشويق المتلقي بجعله السيف سؤالاً بـ (هل) ، وانعدامه جواباً بـ (لم) وهي مماثلة موفقة بين الدلالة المستهدفة بالتركيب وما يتولى إيصالها من

الكلام ، مما جعل من نص الجواهري محاورةً هشةً بإزاء تماسك نص المتنبي وجماليته وانسجامه مع واقعه المَعيش ، وقد بدا نص الجواهري تفسيراً لقول المتنبي الآخر في هذا المعنى :

من أطاق التماس شئ غِلابـــاً واغتصاباً لم يلتمسه سؤالا (23)

وقوله :

فلا قضى حاجتـــــــهُ طالِبٌ فؤاده يخفق من رعبـــــــــهِ (24)

وقوله :

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه إذا اتسعت في الناس طرق المظالمِ
وأن ترد الماء الذي شطره دمٌ فتَسقِي إذا لم يَسْقِ من لم يُزاحِمِ (25)

(2)

الجواهري :

ومن يتطلّب مصعبات مسالكٍ فأيسرُ شئٍ عنده المركبُ الصعبُ (26)

المتنبي :

ذريني أنـلْ ما لا يُنالُ مِنَ العُلى فصعبُ العلا في الصعب والسهل في السهلِ (27)

ومن خُلِقت عينـاكِ بيـن جفونِـهِ أصابَ الحَدورَ السهل في المرتقى الصعبِ (28) .

نحسب أن التوفيق قد جانب الجواهري في حواريته هذه أيضاً ، من نواح عدة ، منها أن نص المتنبي الأول ذو بنية خبرية مستقرة الدلالة تؤهله لأن يوصف بكونه حكمةً قابلة للتداول الجمعي لأنها تحمل إقناعاً وتتوفر على الاعتدال ، وتتحلى بالإيجاز كما أن التعالق يبدو أكثر وضوحاً لدى المتنبي بين جملة الشرط وجوابها في منطق الشعر إذ ناسب سياق الغزل (في البيت الثاني) بعقده المماثلة بين القوة التي لا ترد وعيني تلك المرأة ، فيما بدت البنية الانشائية لنص الجواهري غير مستقرة الدلالة لإتيانه بالجواب على سبيل القطع ، فيما أن من غير المحتم أن يقترن الطموح بالشجاعة ، فالطمع والرغبة بالاستزادة من المعالي هي من السمات الكامنة في كل نفس ، لكنه وحده ليس كفيلاً بجعل الصعب سهلاً في النفوس كلها كما قطع بذلك الجواهري ، كما بدت في نصه سطوة نص آخر للمتنبي ، حتى بدا تفسيرا وشرحا له ، وهو قوله :

إذا اعتاد الفتى خوض المنايا فأهون ما يمر به الوحـــــــــولُ (29)

(3)

الجواهري :

ومن لم يجـد إلا ذُعـافَ مذلّةٍ ورواداً فموت العز مورده عذبُ [30]

المتنبي :

فثَب واثِقـاً باللـه وثـبـةَ ماجـدٍ يرى الموت في الهيجا جنى النحل في الفمِ [31]

وهذه الحوارية أيضا تندرج في سياق التفسير ـ وهو أهون أشكال الحوار وأضعفها ـ فلم يزد فيه الجواهري على إيضاح النص الغائب الذي يحاوره ، غير أن لنص المتنبي فضيلتي السبق إلى المعنى وتماسك البناء ، بينما ضاقت العبارة بالجواهري فاضطر إلى استعمال المصدر (ورود) والأولى أن يستعمل اسم المكان (مورد) في محلها ، فيقول " لم يجد مورداً " ، وليس " لم يجد وروداً " ، ولاسيما أنه ذكر " مورد " في العجز ، فانتفى التوازن والتناسب .

(4)

الجواهري :

وهل يظمأ اللاوي من الذلِّ جانباً وبيضُ الظّبا رقراقها عَلَلٌ سكْبُ [32]

المتنبي :

أيملك الملك والأسيـاف ظامئةٌ والطير جائعةٌ لحماً على وضمِ [33]

استفهم المتنبي استفهاما إنكارياً مفاده أن الملك قرين القوة ، وقد كنى عن ضريبة الملك من الدماء بعبارة (لحما على وضم) ، وقد أزاح الجواهري الظمأ من السيف إلى صاحبه ، وجعل السيف ساقيا للظامئ إلى الملك ، وفي ذلك زيادة حسنة وتصرف ، غير أن قاموسية ألفاظ مثل (اللاوي ، الظبا ، عَلَلٌ) ذهبت ببهاء هذه الزيادة .

(5)

الجواهري :

لقد عظموا قدراً وبطشـاً وإنما على قدر أهليها تكونُ الوقائعُ [34]

المتنبي :

على قدر أهل العزم تأتي العزائمُ وتأتي على قدر الكرام المكارمُ [35]

لعل الجواهري لم يكن موفقا في اختياره الحواري هذا ، نظرا لوقوع اختياره على أحد الأبيات ذائعة الصيت للمتنبي ، مما يجعل صوت النص الغائب بدويه الهائل كفيلاً بإخفات وإضعاف أية صوتٍ لنص حاضرٍ يحاوره ، ولعل البون بين النصين المتحاورين يحدث عن نفسه .

وقد وقع الجواهري في مثل هذا في قوله :

بعد عشرٍ مشت بطاءً ثِقالا مثلما عاكست رياحٌ شِراعا [36]

الذي يحاور حكمة المتنبي الشهيرة :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفنُ [37]

في قوله أيضاً :

ولو أردت بكِ التقريع عن مقةٍ لقلتُ أنفُكِ رغم العز مجتدَعُ [38]

محاورا قول المتنبي :

ليس الجمال لوجهٍ صحَّ مارِنُـهُ أنف العزيز بقطع العز يُجتَدَعُ [39]

وقوله :

فما انتظاركِ ميتا لا ضمير له حزما فلا الخوف ذو شأن ولا الطمعُ [40]

محاورا قول المتنبي :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلامُ [41]

وإن قول الجواهري :

تمكن ذو طَولٍ فأصبح حاكما وجُنِّب مدحورٌ فأصبحَ راهبا

وفاتت أناسٌ قدرةٌ فتمسكنوا ولم يخلقوا أسدا فعاشوا ثعالبا [42]

ليس سوى شرح لقول المتنبي :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلةٍ لا يَظلِمُ [43]

وقوله الآخر :

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتّالُ [44]

(6)

الجواهري :

وما ضَّرهم نبو السيوف وعندهم عزائم من قبل السيوف قواطعُ [45]

وهذا النص من كبوات الجواهري الحوارية ، نظراً لتقليديته التامة ، ولغته غير المنتمية إلى عصرها ، فلا يمكن لنا أن نتوقع بحالٍ صموده في محاورته لمثل قول المتنبي ، المتوفر على الغاية في التكثيف والإيجاز :

يقد عداها بلا ضاربٍ ويسري إليهم بلا حاملِ [46]

وقوله :

فإن كان خوف القتل والأسر ساقهم فقد فعلوا ما القتل والأسر فاعلُ

فخافوك حتى ما لقتلٍ زيادةٌ وجاؤوك حتى ما تُزاد السلاسلُ [47]

وقوله :

نفسه جيشه وتدبيره النصـ ـر وألحاظه الظبا والعوالي [48]

(7)

الجواهري :

لئن شكر الصبح المحبون إنني شكرتُ الدجى إذ كان ما بيننا سترا (49)

المتنبي :

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثني وبياض الصبح يغري بي (50)
وكم لظلام الليل عندي من يدٍ تخبر أن المانوية تكذبُ (51)

ليس في حوار الجواهري لنصي المتنبي أية تصرف أو زيادة تذكر ، بل تخلف عن اللحاق بصاحبه حين فسر في عجز بيته ما ذكره في صدره ، بينما أوكل المتنبي الاستدلال في نصيه إلى قدرة المتلقي على التأويل ، فهما وأمثالهما مماتمتحن به العقول ، وقد نالا إعجاب الكثير من قراء المتنبي ودارسيه في مختلف العصور .

(8)

ويبدو قول الجواهري :

حمِّل فؤادي ما تشاء يُطِقْ بهِ إلاّ جفاك فذاك لستُ أطيقُهُ (52)

إعادة شارحة لقول المتنبي :

إني لأَجْبُنُ من فراق أحبتي ويحس قلبي بالحِمام فأشجُعُ (53)

(9)

إن نحن رفعنا من قول الجواهري :

حشاشة نفس أجهدت فيك والهوى يطاردها عن قصده وتطاردُ (54)

كلاًّ من عجز بيت المتنبي القائل :

أهم بشئ والليالي كأنها تطاردني عن كونه وأطارد (55)

وعبارة (حشاشة نفس) في صدر بيت المتنبي الآخر :

حشاشة نفسٍ ودعت يوم ودعوا فلم أدر أي الظاعنَيْنِ أشَيِّعُ (56)

لم يبقَ للجواهري من البيت سوى قوله (أجهدت فيك والهوى) .

(10)

الجواهري :

أنا باهيت بموتي في الهوى لا بشوقي أين من لم يشتقِ (57)

المتنبي :

وعذلت أهل العشق حتى ذقتُهُ فعجبتُ كيف يموت من لا يعشق (58)

ينتهج الجواهري في حواريته هذه مناقشة النص الغائب ، وهو إجراء حواري يوفق فيه عادةً ، غير أنه وقع في هوة التهويل العاطفي في التعبير عن الهوى في قوله

(باهيت بموتي) فانطفأت جذوة الحوار الناجح مع النص الغائب ذي السمة الحكمية المتخففة من التهويل .

(11)

وإن قول الجواهري :

وما أختار ناحيةً لأنـي رماني الدهر من كل النواحي [59]

لم يضف شيئا إلى قول المتنبي :

رماني الدهر بالأقذاء حتى فؤادي في غشاء من نبالِ

فصرت إذا أصابتني سهامٌ تكسرت النصالُ على النصالِ [60]

بل قصر عنه تقصيرا كبيراً ، فلا مقارنة بين صورة النصال التي تكسرت فوق بعضها لكثرتها وقول الجواهري (من كل النواحي) الممتلئ بالمباشرة والمنشغل بالشرح عن جوهر فكرة الأذى عند المتنبي .

(12)

كما بدا قول الجواهري :

فما حز في نفسي كغدرة غادرٍ له ظاهر بالمغريات مغلفُ [61]

شرحا لقول المتنبي :

فلا تغررك ألسنـةٌ مَوالٍ تقلبهن أفئـدةٌ أعـادي [62]

ب ـ الحواريات المنتجة :

وهي التي بدا الجواهري فيها متحررا من سطوة ما يحاوره من نصوص المتنبي ، فهو يقف فيها على مسافة مقبولة مما يقرؤه قراءة مفضية ، تعيد إنتاج المقروء ، ومن أمثلة هذه الفئة ما يأتي :

(1)

يحاور قول الجواهري :

ودعتُ شرخ صباي قبل رحيلهِ ونصلت منه ولات حينَ نُصولهِ

وأرى الصبا عجلا يمر و إنني ساعدت عاجلَه على تعجيلهِ [63]

قول المتنبي :

ولقد بكيت على الشباب ولمتي موفورة ولماء وجهي رونقُ

حذراً عليه قبل يوم فراقه حتى لكدت بماء جفني أشرقُ [64]

وعلى الرغم من أن المعنى متقارب ، والألفاظ متداخلة ، فإن الجواهري قد أضفى على حواريته قدراً من الزيادة في قوله (ساعدت عاجله على تعجيله).

(2)

ويحاور قول الجواهري :

وبلـدتُ حتى لا ألـذ بمفـرِحِ حذرَ انتكاسته وخوف عذوله (65)

وقوله :

في ذمة الله ما ألقى وما أجدُ أهذه صـخرة أم هذه كبدُ (66)

قول المتنبي :

أصخرة أنا ما لي لا تحركني هذي المدام ولا هذي الأغاريدُ (67)

غير أن الجواهري قد غاير الأصل حين أفصح عن سبب تبلده ، فيما اكتفى المتنبي بالتساؤل عنه .

(3)

ويحاور قول الجواهري :

ما حطمت جَلَدي يدُ النوَبِ لكن تحطمت النوائبُ بي (68)

قول المتنبي :

إن نيـوب الزمان تعـرفني أنا الذي طال عجمها عودي

وفيَّ ما قارع الخطوبَ ومـا أنسني في المصائب السـودِ (69)

ولعل نصي المتنبي والجواهري ظهرا هنا كفرسي رهان في الإجادة والإحسان .

(4)

يحاور قول الجواهري بشئ من التصرف :

أنا صخرةٌ ما إن تخـوفني هذي الرياح الهوجُ بالصخَبِ (70)

قول المتنبي :

أنا صخرة الوادي إذ ما زوحِمَتْ وإذا نطقتُ فإنني الجَـوزاءُ (71)

(5)

الأمر ذاته يصح في قول الجواهري :

أخجلته بالضحك أحسبه كمخوِّفٍ للنبع بالغَرَبِ (72)

الذي يحاور قول المتنبي :

فلا تنـلك الليـالي إن أيديَـها إذا ضَربن كسرن النبع بالغَرَبِ (73)

غير أن المتنبي جعل المستحيل ممكناً (كسر النبع بالغرب) إذا غدرت الليالي

، وعدل الجواهري عن هذا .

(6)

ويحاور قول الجواهري :

و مناشدي نسبا أمتُّ به لم يدرما حسبي وما نسبي
عندي من الأموات مفخرةٌ شمّاء مربية على الطلب
لكن أنفت بأن يعيد فمي للناس عهد الفخر بالعصبِ
حسبي تجاريبٌ مهرت بها وإلى البلايا السود منتسبي
وبذي وتلك كفايتي شرفا يُرضي العُلاويسرُّ قبرَ أبي (74)

جمعا من نصوص المتنبي الدائرة في سياق العدول عن الفخر بالآباء إلى الفخر بالنفس ، مع الإشادة بهم ، نحو قوله :

يقولون لي ما أنت في كل بلدة وما تبتغي ما أبتغي جل أن يُسْمَى
وإني لمن قومٍ كأن نفوسنا بها أنفٌ أن تسكن اللحم والعظما (75)

وقوله :

أنا ابن من بعضه يفوق أبا الـ ـباحث والنجل بعض من نجلَهْ
وإنما يذكر الجدود لهم من نفروه وأنفدوا حيلَهْ
فخرا لعضبٍ أروح مشتمِلَهْ وسمهريٍّ أروح معتقِلَهْ
وليفخر الفخر إذ غدوتُ به مترتديا خيره ومنتعِلَهْ (76)

وقوله :

لا بقومي شرُفت بل شرُفوا بي وبنفسي فخرت لا بجدودي
وبهم فخر كل من نطق الضا د وعوذ الجاني وغوث الطريدِ (77)

(7)

وقد أجاد الجواهري في قوله :

حييتِ أمَّ فراتٍ إن والدةً بمثل ما أنجبت تكنى بما تلدُ (78)

محاورا قول المتنبي :

ولو لم تكوني بنت أكرم والدٍ لكان أباكِ الضخم كونُكِ لي أمّا (79)

(8)

وفي قوله :

يا أندنوس إن استمات بنوكِ فالحرب أمكِ والكفاح أبوكِ (80)

محاورا قول المتنبي :

وإن عمرت جعلت الحرب والدةً والسمهريَّ أخاً والمشرفيَّ أبا (81)

(9)

الجواهري :

إلام التواني في الحياة وقد قضى على المتواني الموت هذا التنازعُ [82]

المتنبي :

إلى كم ذا التخلف والتواني وكم هذا التمادي في التمادي [83]

يتفوق نص الجواهري على نص المتنبي في حواريته هذه ، على ما نرى ، لأنه جاء بزيادة مستحسنة بعبارة (على المتواني .. إلخ) ، أعانه عليها امتداد فضاء البحر الطويل ، فيما أسفَّ المتنبي قليلاً بقوله (التمادي في التمادي) الذي بدا مضطرا إليه لملأ الشاغر العروضي في فضاء بيته ، فلا معنى للتمادي في التمادي ، كما أن لا معنى على سبيل المثال للعطش في العطش أو التشافي في التشافي وما إلى ذلك من التراكيب الأقرب إلى الافتعال واللعب باللغة .

(10)

الجواهري :

إذا أنت لم تأكل أَكِلتَ وذلـةً عليك بأن تُنسى وغيرُكَ شائعُ [84]

المتنبي :

ومن عرف الأيام معرفتي بها وبالناس روّى رمحه غيرَ ظالم
فليس بمرحوم إذا ظفروا بهِ ولا في الردى الجاري عليهم بآثِم [85]

أتى المتنبي بهذا المعنى بما يحاكي العبارة الفقهية في قوله (غير ظَالِم) ، ولعله استشعر وطأة هذه الدعوة على المتلقي فبادر إلى بيان ما دعاه إلى ذلك في بيته الثاني ، وحجته في الاستدلال هي أن الناس لن يرحموه إذا ظفروا به ، وقد تفوق الجواهري على المتنبي في حواريته مع هذا المعنى بما توفر عليه نصه من إيجاز أو تكثيف غير مخلٍّ ، أسقط فيه الاستدلال والشرح الذي جاء به المتنبي ، وأتى بزيادة حسنة في قوله (وذلة عليك بأن تُنسى إلخ) فجمع حكمتين في فضاء بيت واحد ، غير أنه تخلف بالمعنى ذاته في حوارية أخرى مع نص المتنبي نفسه أعاد فيها النص كما هو ، قائلاً :

ولا تكذبن ما في البرية راحمٌ ولا أنت فاترك رحمة عنك جانبا [86]

(11)

الجواهري :

إذا استَكرهوا طعم الممات فأبطَأوا أَتيحَ لهم ذكرُ الخلودِ فسارَعوا (87)

المتنبي :

أَنَفُ الكريم من الدنيـة تاركٌ في عينه العدد الكثير قليلا
والعار مضاضٌ وليس بخائفٍ من حتفه من خاف مما قيلا (88)

لكل من نصي المتنبي والجواهري جمالياته البنائية والدلالية ، غير أن لنص الجواهري فضيلة الإيجاز ، فقد أتى في بيت واحد بمعنى استغرق من المتنبي مساحة أكبر لاستقصائه .

(12)

ويحاور قول الجواهري :

أعندكِ علـمٌ أنني من مـعاشرٍ أبوهم جنى واختار أدنى المسالِكِ
رماهم إلـى شر المهالكِ آدَمٌ فهم أبـرياءٌ حُمِّـلوا وِزرَ هالِكِ (89)

قول المتنبي الشهير الذي أنطقَ فيه حصانه وجعله يقول له :

أبوكم آدمٌ سن المعاصي وعلمكم مفارقة الجنانِ (90)

وعلى الرغم من أن لنص المتنبي فضيلة لا تدفع في استنطاق الحيوان غذته بمفارقة طريفة ، فإن نص الجواهري لم يخل من الإحسان ، وقد عدل عن طرافة المفارقة إلى جدية التأمل العقلي شبه الفلسفي في جدلية الخطيئة والبراءة .

(13)

ويحاور قول الجواهري :

كاذبٌ مانال شعبٌ بسوى القوة نالا
يا يراع الحر قد ضا ق بك الحر مجالا
فصموتـا فلكم جر لـك النطق وبـالا (91)

قول المتنبي :

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي المجد للسيف ليس المجد للقلم
اكتب بنا أبداً قبل الكتاب بـه فإنما نحن للأسياف كالخـدمِ (92)

وعلى الرغم من علو صوت النص الغائب ، فإن نص الجواهري لم يبد تابعاً ضعيفا لما يحاوره ، فقد كان له خصوصيته في البناء والدلالة والتعبير عن لسان حال القلم .

إن إنطاق المتنبي لأقلامه ـ كما أنطق حصانه ـ هو إجراء موفق للتعبير عما يعتقده ، يتفوق به على نص الجواهري الذي يحاوره ، غير أن الجواهري أضاف إلى ما يحاوره عنصراً من صميم واقعه المعاصر وهو الدفاع عن قضايا الشعوب المستضعفة

، لم يجعل من نصه نسخة أخرى فحسب ، أو محاكاة قاصرة للأصل .

(14)

ويحاور قول الجواهري :

أملٌ أخشى عليه زمني فلو اسطعتُ أطلتُ الزمنا (93)

قول المتنبي :

أريد من زمني ذا أن يبلِّغَني ما ليس يبلغه من نفسه الزمنُ (94)

يرى المتنبي أن حجم الزمن يقصر عن احتواء غاياته الجسام ، وقد تصرف الجواهري بهذا المعنى بنحو حسن ، تخفف فيه من علو صوت الأنا وصخبه في نص المتنبي بجعله الغاية من رغبته بإطالة الزمن هي تحقيق أملٍ من آماله فحسب .

(15)

ويحاور قول الجواهري :

لا تخلُ في هناءٍ ظاهرٍ كل من في الأرض لا يدري الهنا (95)

وقوله :

فمن أين للحساس قلب يريحه ومن أين للقلب الغبي غرامُ (96)

قول المتنبي :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعمُ (97)

وقوله :

أفاضِلُ الناس أغراضٌ لذا الزمنِ يخلو من الهم أخلاهم من الفِطَنِ (98)

غير أن الجواهري بدا مناقشا للنص الذي يحاوره ، فبينما قصر المتنبي الشقاء على ذوي النهى والتأمل والتفكر ، نجد الجواهري معمما لحالة الشقاء على كل حي ، وهي زيادة هينة ، غير أنها لم تجعل من نصه إعادة مطلقة .

(16)

يحاور قول الجواهري :

بثثت إليه أنةً توهن الصفا فلما تغاضى صح لي أنه حجر (99)

قول المتنبي :

ولو حملت صم الصخور الذي بنا غداة افترقنا أوشكت تتصدعُ (100)

وقد بدا البيتان كفرسي رهان في الإجادة ولطف المعنى ، غير أن المتنبي تخفف من القطع بذكاء ينم عن دقة تعبير بقوله (أوشكت) فلم ينسب إلى الصخور ما

ليس لها قاطعا ، وإنما جاء به على سبيل الاحتمال ، فيما كان الجواهري قاطعاً بأن صاحبه حجر ، فعبارة المتنبي أدنى إلى الاعتدال منها إلى التهويل .

(17)

ويحاور قول الجواهري :

أنا خصم كلِّ منافقٍ لم ينهني حذرٌ ولم يقعد بي الكتمانُ (101)

قول المتنبي :

أنا ترب الندى ورب القوافي وسمام العدى وغيظ الحسودِ (102)

غير أنه أفاد من عموم النص ولم يكرره ، وإنما اجتهد في إضافة ما يعبر عن تجربته الذاتية ، فأجاد .

(18)

الجواهري :

حالت عن العهد البلاد كأنها لبست لفقدهم ثياب حدادِ (103)

المتنبي :

كأن الجفون على مقلتي ثيابٌ شُقِقنَ على ثاكِلِ (104)

أزاح الجواهري فعل الحزن من (الجفون) المذكورة في نص المتنبي إلى (البلاد) ، وعلى الرغم من أنه لم يتفوق على ما يحاوره ، فإنه التفت التفاتة ذكية أفلت بها من سطوة نص المتنبي بعدوله عن الثياب المشقوقة التي شبه بها المتنبي جفونه على عينيه الباكيتين إلى ثياب الحداد عامة مفيدا من دلالتها اللونية على السواد ، بينما ارتكز المتنبي إلى التعالق التصويري بين الثياب المشقوقة والعينين الباكيتين .

(19)

وهل يمكن لنا أن نقرأ قول الجواهري :

نام الرشيد عن العراق وما درى عن مصره فرعون ذو الأوتادِ (105)

فلا يحضر في ذهننا قول المتنبي :

نامت نواطير مصرٍ عن ثعالبها فقد بشمن وما تفنى العناقيدُ (106)

غير أن الجواهري أبقى النص الذي يحاوره بمثابة خلفية تاريخية للمشهد السياسي الجديد الذي يرصده نصه ذو المحمول الدلالي المعروف ، وخلا نصه من المحاكاة المجردة والتقليد الأعمى .

(20)

يحاور قول الجواهري :

حـاش للـه بقايـا ذمَّـةٍ منك أن تشمت بي خصما ألدّا (107)

قول المتنبي :

أعيذهـا نظرات منك صادقـةً أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورمُ

وبيننـا لورعيتم ذاك معرفَـةٌ إن المعارف في أهل النهى ذمم (108)

لم يفق الجواهري هنا ما يحاوره ، بيد أنه لم يتخلف عنه .

(21)

الجواهري :

خطت على أوساطها خضرةٌ سبحان من قدَّرَ هذا النطاق (109)

المتنبي :

وخصرٍ تثبت الأبصار فيه كأن عليه من حدقٍ نطاقا (110)

أزاح الجواهري النطاق من الزُّنار إلى خضرة المرج ، والخصر من الجسد إلى الأرض الخضراء ، فنجى من الاستنساخ ، غير أن نص المتنبي في ظننا بقي هو الأفضل .

(22)

ويحاور قول الجواهري :

نسبٌ بيننا الهـوى احفظي حرمة النسبْ (111)

قول المتنبي :

وبينـنا لورعيتـم ذاك معرفـةٌ إن المعارف في أهل النهى ذممُ (112)

وقد أضفت خفة الإيقاع وإيجاز العبارة على نص الجواهري رونقاً ، وإن لم ينج تماماً من سطوة الأصل .

إن مواطن الحوار بين النصين كثيرة من كلا المستويين المشار إليهما آنفاً ، غير أننا سنكتفي بما تقدم من النصوص تجنبا للإطالة ، فقد بدا لنا أن ما انتخبناه من تلك المواطن الكثيرة قد يسهم في اجتلاء فكرة هذه المقاربة ، ومنح المتلقي تصورا على قدر من الوضوح حول موقع المتنبي في رؤيا الجواهري ونصه على حد سواء ، وكيفية إفادة الجواهري من سلفه الكوفي الكبير في رفد تجربته الشعرية.

نأمل أن نكون قد وفقنا في عرض ما عنَّ لنا في هذ الموضوعة الإشكالية ، على مستويي الرؤيا / ماوراء الخطاب ، و النص / الخطاب بغية اجتلاء إحدى أهم مرجعيات الجواهري .

هوامش البحث

(١) ينظر ـ تداول المعاني بين الشعراء ـ قراءة في النظرية النقدية عند العرب ـ أحمد سليم غانم ـ

المركز الثقافي العربي - المغرب - 2006 : في مواضع كثيرة ، حضور النص الغائب (الفرزدق مرجعية للمتنبي) - بحث مخطوط مقدم للترقية العلمية - د. محمد الأسدي - كلية الآداب - جامعة البصرة - 2010 ، نظرية النص " من بنية المعنى إلى سيميائية الدال " - د. حسين خمري - منشورات الاختلاف - الجزائر - 2007 .: 253 .

(٢) ينظر - الجواهري دراسة ووثائق - د. محمد حسين الأعرجي - دار المدى - سوريا - 2002 : 51 ، الجواهري شاعر العربية - عبد الكريم الدجيلي - مطبعة الآداب - النجف الأشرف - 1972 : 29 - 32 ، ديوان الجواهري - الأعمال الشعرية الكاملة - ط2 - دار الحرية - بغداد - 2001 : 29 - 44 .

(٣) ينظر - الثابت والمتحول " بحث في الاتباع والإبداع عند العرب " - علي أحمد سعيد " أدونيس " - دار العودة - بيروت - 1978 : 2 / 167.

(٤) ، (5) : ينظر - الشعر العربي وولاية العهد - د. محمد الأسدي - مقال منشور في موقع ديوان العرب - 2009 .

(٦) مقالات في النقد الأدبي - ت. س. إليوت - ترجمة د. سهير القلماوي - مكتبة النهضة - مصر - 1983 : 3 - 12 .

(٧) المكان نفسه .

(٨) الديوان : 224 .

(٩) ينظر - نفسه : 15 ، 29 .

(10) ينظر - ديوان السيد حيدر الحلي - تحقيق علي الخاقاني - مؤسسة الأعلمي - بيروت - ط 4 - 1984 : 1 / 151 .

(11) ينظر - الديوان : 29 - 30 .

(12) الجواهري - الأعرجي : 307 .

(13) الديوان : 318 .

(14) نفسه : 319 .

(15) نفسه : 347 - 350 .

(16) ينظر - الجمهرة " مختارات من الشعر العربي " - محمد مهدي الجواهري - دار الرافدين - ط 2 - سوريا - 1993 : 1/ 34 - 35 .

(17) نفسه : 32 - 33 .

(18) نفسه : 35 .

(19) نفسه 36 .

(20) الديوان : 195 .

(21) نفسه : 57 .

(22) ديوان المتنبي بشرح العكبري : 4 / 160 .

(23) نفسه : 3 / 147 .

(24) نفسه : 1 / 213 .

(25) نفسه : 4 / 112 .

(26) الديوان : 57 .

(27) ديوان المتنبي : 3 / 290 .

(28) نفسه : 1 / 49 .

(29) نفسه : 3 / 5 .

(30) الديوان : 57 .

(31) ديوان المتنبي : 4 / 34 .

(32) الديوان : 57 .

(33) ديوان المتنبي : 4 / 43 .
(34) الديوان : 64 .
(35) ديوان المتنبي : 3 / 378 .
(36) الديوان : 273 .
(37) ديوان المتنبي : 4 / 236 .
(38) الديوان : 369 .
(39) ديوان المتنبي : 2 / 222 .
(40) الديوان : 223 .
(41) ديوان المتنبي : 4 / 94 .
(42) الديوان : 284 .
(43) ديوان المتنبي : 4 / 125 .
(44) نفسه : 3 / 287 .
(45) الديوان : 64 .
(46) ديوان المتنبي : 3 / 31 .
(47) نفسه : 3 / 116 .
(48) نفسه : 3 / 248 .
(49) الديوان : 77 .
(50) ديوان المتنبي : 1 / 161 .
(51) نفسه : 1 / 178 .
(52) الديوان : 86 .
(53) ديوان المتنبي : 2 / 269 .
(54) الديوان : 102 .
(55) ديوان المتنبي : 2 / 270 .
(56) نفسه : 2 / 235 .
(57) الديوان : 115 .
(58) ديوان المتنبي : 2 / 333 .
(59) الديوان : 196 .
(60) ديوان المتنبي : 3 / 9 .
(61) الديوان : 229 .
(62) ديوان المتنبي : 1 / 363 .
(63) الديوان : 306 .
(64) ديوان المتنبي : 2 / 336 .
(65) الديوان : 306 .
(66) نفسه : 375 .
(67) ديوان المتنبي : 2 / 40 .
(68) الديوان : 354 .
(69) ديوان المتنبي : 1 / 263 .
(70) الديوان : 354 .
(71) ديوان المتنبي : 1 / 15 .
(72) الديوان : 355 .
(73) ديوان المتنبي : 1 / 94 .
(74) الديوان : 355 .

(75) ديوان المتنبي : 4 / 109 .
(76) نفسه : 3 / 267 - 268 .
(77) نفسه : 1 / 322 - 323 .
(78) الديوان : 376 .
(79) ديوان المتنبي : 4 / 109 .
(80) الديوان : 466 .
(81) ديوان المتنبي : 1 / 120 .
(82) الديوان : 63 .
(83) ديوان المتنبي : 1 / 355 .
(84) الديوان : 63 .
(85) ديوان المتنبي : 4 / 112 .
(86) الديوان : 284 .
(87) نفسه : 64 .
(88) ديوان المتنبي : 3 / 242 .
(89) الديوان : 71 .
(90) ديوان المتنبي : 4 / 256 .
(91) الديوان : 75 .
(92) ديوان المتنبي : 4 / 159 - 160 .
(93) الديوان : 75 .
(94) ديوان المتنبي : 4 / 243 .
(95) الديوان : 76 .
(96) نفسه : 77 .
(97) ديوان المتنبي : 4 / 124 .
(98) نفسه : 4 / 209 .
(99) الديوان : 72 .
(100) ديوان المتنبي : 2 / 236 .
(101) الديوان : 89 .
(102) ديوان المتنبي : .
(103) الديوان : 93 .
(104) ديوان المتنبي : 3 / 23 .
(105) الديوان : 93 .
(106) ديوان المتنبي : 2 / 43 .
(107) الديوان : 109 .
(108) ديوان المتنبي : 3 / 366 .
(109) الديوان : 126 .
(110) ديوان المتنبي : 2 / 296 .
(111) الديوان : 241 .
(112) ديوان المتنبي : 3 / 363 .

المصادر والمراجع

1 ـ تداول المعاني بين الشعراء ـ قراءة في النظرية النقدية عند العرب ـ أحمد سليم غانم ـ المركز الثقافي العربي ـ المغرب ـ 2006 .

2 ـ الثابت والمتحول " بحث في الاتباع والإبداع عند العرب " ـ علي أحمد سعيد " أدونيس " ـ دار العودة ـ بيروت ـ 1978
3ـ الجمهرة " مختارات من الشعر العربي " ـ محمد مهدي الجواهري ـ دار الرافدين ـ ط2 ـ سوريا ـ 1993 .
4ـ الجواهري " دراسة ووثائق " ـ د. محمد حسين الأعرجي ـ دار المدى ـ سوريا :51 .
5 ـ الجواهري شاعر العربية ـ عبد الكريم الدجيلي ـ مطبعة الآداب ـ النجف الأشرف ـ1972 .
6 ـ حضور النص الغائب (الفرزدق مرجعية للمتنبي) ـ بحث مخطوط مقدم للترقية العلمية ـ د. محمد الأسدي ـ كلية الآداب ـ جامعة البصرة ـ 2010 .
7 ـ ديوان الجواهري ـ الأعمال الشعرية الكاملة ـ ط2 ـ دار الحرية ـ بغداد ـ 2001 .
8 ـ ديوان السيد حيدر الحلي ـ تحقيق علي الخاقاني ـ مؤسسة الأعلمي ـ بيروت ـ ط4 ـ 1984 .
9 ـ ديوان المتنبي ـ شرح العكبري ـ لجنة من المصححين ـ دار الفكر ـ بيروت ـ2003
10 ـ الشعر العربي وولاية العهد ـ د. محمد الأسدي ـ كلية الآداب ـ جامعة البصرة ـ مقال منشور في موقع ديوان العرب ـ 2009 .
11 ـ مقالات في النقد الأدبي ـ ت. س. إليوت ـ ترجمة د. سهير القلماوي ـ مكتبة النهضة ـ مصر ـ 1983 .
12 ـ نظرية النص " من بنية المعنى إلى سيميائية الدال " ـ د. حسين خمري ـ منشورات الاختلاف ـ الجزائر ـ 2007 .